كشف الشبهات: الدرس العاشر

لفضيلة الشيخ الدكتور: عبد العزيزبن أحمد البداح

وفي روايةٍ عند مسلم أن تدعوَ لله ندًا وهو خلقك، وبيان الشرك وتفسيره جاء أيضًا عن السلف من الصحابة والتابعين فطالع الآثار التي جاءت عن الصحابة والتابعين في تفسير الشرك الوارد في القرآن ستجد أنهم يفسرونه باتخاذ شريكٍ مع الله في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته أو ببيان بعض أفراد الشرك الأكبر أو أفراد الشرك الأصغر، فمثلًا في قول الله عز وجل: ﴿...فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، السلف رحمهم الله من الصحابة والتابعين يفسرون الشرك بأنه اتخاذ شريكٍ مع الله في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات.

جاء عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغيرهم عند تفسير هذه الآية جاء عنهم أن الأنداد هم الشركاء مع الله بزعم شريكٍ مع الله عز وجل.

(وتقر أن الله لا يغفره فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره، فإنه لا يدري ... فقل له كيف تبرؤ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكره أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا ؟!) إذن قد بين الله عز وجل الشرك في القرآن وجاء بيانه في السنة وبينه السلف الصالح رحمهم الله، من أين أتى الخلل عند المخالفين لأهل السنة لماذا وقعوا في الخلل؟ الخلل جاء من وجوه، الخلل الذي عند المخالفين لأهل السنة في التوحيد والشرك إنما جاء من وجوه:

الوجه الأول: أنهم فسروا الإله بالخالق أو القادر على الاختراع أو المستغني عمن سواه المفتقر إليه من عداه، وعلى هذا كلمتهم فقد ذكر البغدادي في أصول الدين وهو من أئمتهم: أن الإله هو القادر على الاختراع وكذا ذكره الرازي وهو من أئمتهم في شرح أسماء الله الحسنى أن الإله هو القادر على الاختراع، وسبق معنى يرون أن الإله هو المعبود، واشتقاقه اللغوي هو ذلك.

الوجه الثاني من وجوه الخلط والخطأ عند المخالفين لأهل السنة في باب التوحيد والشرك: أنهم جعلوا أول واجبٍ على المكلف هو النظر أو القصد إلى النظر أو الشك وأوصلها بعضهم إلى إثني عشر قولًا، كما ذكر ذلك بعض الشراح في جوهرة التوحيد فبعضهم يذكر هذه الأقوال جميعًا وبعضهم يذكر أحدها، الباقلاني في الإنصاف ذكر أن أول واجب على المكلف القصد إلى النظر، الجويني في الإرشاد ذكر أن أول واجبٍ على المكلف هو النظر إلى غير ذلك مما يتعلق بهذه المسألة.

الوجه الثالث: من الوجوه التي كانت سببًا في وقوع الخطأ والخلط عند المخالفين لأهل السنة في باب التوحيد والشرك: أنهم جعلوا توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية، والآيات التي فيها الألوهية جعلوها في الربوبية ولهذا الشرك عندهم لا يكون إلا في الربوبية فلا يقع العبد في الشرك إلا إذا اعتقد مع الله ربًا أو إذا اعتقد ربوبية غيره، أما ما عدا ذلك فلا يردونه شركًا. ما قال به بعض المخالفين لأهل السنة من تفسير الإله بالمعبود أو تفسير لا إله إلا الله بأنه لا معبود بحقٍ إلا الله هذا جاء عن بعض المخالفين لأهل السنة، فإن بعضهم كالرازي مثلًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، قال: لا معبود إلا الله وقال: لا إله إلا الله أي لا معبود إلا الله، وكذلك أيضًا التفتزاني وغيرهم من أئمة المتكلمين، وهذا الكلام يوجه بأنه من الاضطراب والتناقض الذي وقع فيه المخالفون لأهل السنة، ومن المعلوم أن المخالفين لأهل السنة لما أعرضوا عن الكتاب والسنة وقعوا في الاختلاف والتناقض والاضطراب والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[الذاريات:٨-٩] وكتاب الله عز وجل وسنة رسوله هي المحكمة التي لا تناقض فيها ولا اضطراب، ولهذا مذهب أهل السنة يتميز باطراده وعدم وقوع الاضطراب والتناقض فيه لأنه مبنيٌّ على الكتاب والسنة، والوحي محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من عزيزٍ حميد، أما نتاج عقول البشر فلأنه يعتريه الضعف والقصور والعجز والجهل ويغلب عليها الهوى ومعارضة الحق فإنه يكون في كلامها الاضطراب والاختلاف والتناقض، ولذا فإذا رأيت للمتكلمين كلامًا يوافق أهل السنة في هذا الباب فإنه يُحمل على التناقض والاضراب والاختلاف لأن جمهورهم يرى أن ما يكون شركًا من دعاء غير الله والاستغاثة به عندهم ليس بشرك لماذا؟ بناءً على أن التوحيد هو الربوبية والشرك لا يكون إلا في الربوبية باعتقاد ربوبية غير الله تعالى.

(فإن قال الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام فقل له: ما معنى عبادة الأصنام..) هذه الشبهة الفرعية سبق بينها ضمن الشبه الثلاثة الرئيسة وذكرت لك من الآيات والأحاديث وأقوال السلف ما يُبين أن الشرك ليس محصورًا في عبادة الأصنام وأن الذين كفرهم الله عز وجل في كتابه ليس هم عبدة الأصنام فقط، بل إن عبدة الأصنام لا يعبدون الحجر ولا الخشب نفسه وإنما يعبدون الأرواح التي حلت فيها يعني أرواح الصالحين، وأئمة

المخالفين لأهل السنة يقررون هذا: الشهرستاني في الملل والنحل قال: إن هؤلاء إنما صوروا هذه الأصنام على أرواح من يعظمونها لينوب منابهم ويقوم مقامهم وإلا فلا يتصور عاقل أن أحدًا ينحت حجرًا أو خشبًا ثم يعتقده إلهًا وهذا الكلام نقله ابن القيم رحمه الله عن الشهرستاني بنصه في كتابه إغاثة اللهفان، وكذا أيضًا الرازي لما ذكره ما رآه في زمن تعظيم القبور قال: إنما هذا نظير عبادة الأصنام وكذا غيرهما، ويطول المقام في ذكر كلام أئمة المتكلمين في بيان أن المشركين لا يعبدون الأصنام وإنما يعبدون ما صوروه على هيئتها من الصالحين وغيرهم.

المقصود أنه سبق بيان ذكر الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف والمخالفين أيضًا مما ينقض هذه الشبهة وأنه ليس بصحيح أن الشرك إنما هو في عبادة الأصنام، بل الشرك في عبادة الملائكة والأنبياء والأولياء والجن وغيرهم، بل حتى إذا قلنا أن هؤلاء إنما عبدوا الأصنام فإنما عبدوا الأرواح التي حلت فيها أو الصالحين والأولياء الذين صنعوا هذه الأصنام على هيئاتهم وعلى أرواحهم.

(فقل له: ما معنى عبادة الأصنام أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها فهذا يكذبه القرآن، وإن قال هو من قصد خشبةً أو حجرة أو بُنية على قبر أو غيره، يدعون ذلك ويذبحون له إنه يقربنا إلى الله زلفا ويدفع الله عنا ببركته، أو يعطينا ببركته فقل: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي عليها القبور وغيرها، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام فهذا هو المطلوب، ويقال له أيضًا: قولك الشرك عبادة الأصنام هل مرادك أن الشرك مخصوصٌ بهذا؟ وأن الاعتماد على الصالحين وغيرهم لا يدخل في ذلك) هنا ذكر المؤلف رحمه الله أن هؤلاء لا يعتبرون دعاء الصالحين والاستغاثة بهم من الشرك وهذا جاء من ثلاث شبه:

الشبهة الأولى: أنهم يجعلون الاستغاثة ودعاء غير الله توسلًا أو تشفعًا أو التجاءً وهذا خللٌ ظاهر، فإن الاستغاثة شيء والتوسل شيءٌ آخر، الاستغاثة: هي طلب الغوث فهي دعاءٌ من المستغيث إلى المستغاث به، فالمستغيث داعٍ وطالب والمستغاث به مطلوبٌ ومدعوا، أما التوسل فالمتوسل إنما يسأل بالمتوسل به، لا يسأله أو يدعوه، ولهذا هم خلطوا عند الاستدلال فجعلوا آيات وأحاديث التوسل في الاستدلال على جواز الاستغاثة، فإذا جاؤوا يستدلون على جواز دعاء الله أو الاستغاثة بغيره أوردوا مثلًا حديث عمر في البخاري: **((اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نستسقي إليك بعم نبينا فاسقنا، فيُسقون))** وهذا من الخلل. الاستغاثة بغير الله شركٌ أكبر والتوسل له أنواع سبق ذكرها فمنه المشروع ومنه الممنوع وهذا الخلط والتخليط ظاهرٌ عند المخالفين لأهل السنن، وسببه الإعراض عن الكتاب والسنة وعدم إرادة الحق فلمَّا أعرضوا عن الكتاب والسنة وقعوا في الخلط والتخليط

ولما لم يردوا الحق ولم يرغبوا في الوصول إليه حرموا، فصارت الشبهة الأولى عند هؤلاء في قولهم بجواز دعاء غير الله والاستغاثة به بل بعضهم يقول أن دعاء غير الله والاستغاثة به ليس جائزًا فحسب بل هو مشروع ومندوبٌ إليه.

الشبهة الثانية: أنهم يفسرون الآيات التي فيها الدعاء يفسرونها بالعبادة ولا يفسرونها بالطلب والسؤال فكل آية في القرآن نستدل بها على وجوب إخلاص الدعاء لله وأن دعاء غيره شرك، يقولون هذه ليست في الطلب والسؤال إنما هي في العبادة محضة فمثلًا قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]، يقول ادعوني أي اعبدوني وهكذا في سائر الآيات فكل آيةٍ اشتملت على وجوب إخلاص الدعاء لله تعالى والمنع من دعاء غيره يحملونها على العبادة ولهذا لا شرك عندهم في دعاء غير الله، بل إنهم يجعلون هذا الشرك الأكبر من المشروع والمستحب والمندوب إليه لأن الآيات التي نزلت في وجوب إفراد الله عز وجل به والمنع من صرفه لغير الله يجعلونها في شيءٍ آخر وهو العبادة.

الشبهة الثالثة: أنهم يقولون أنه لا يشرك إلا من اعتقد أن للمدعوِّ تأثيرًا أو اعتقد فيه الربوبية، وهذا الأمر لا يُسلم له فإنه ما من أحدٍ يدعوا أحدًا إلا ويعتقد تأثيره ولهذا من صور الشرك عنده الشرك في الربوبية باعتقاد أن هؤلاء الذين يدعونهم أنهم يتصرفون في الكون وأنهم يخلقون ويرزقون أما المسألة الثانية: أنه لا يشرك إلا إذا اعتقد ربوبية غير الله فهذا بناءً على قولهم أن التوحيد هو توحيد الربوبية، ولهذا لا شك عندهم في الألوهية، تحصل من هذا أن المخالفين لأهل السنة لا يرون في دعاء غير الله شركًا، بناءً على هذه الشبه الثلاث: أنهم يجعلون دعاء غير الله والاستغاثة به توسلًا، والأمر الثاني: أنهم يحملون الآيات التي جاءت في وجوب الدعاء لله يجعلونها في العبادة، والأمر الثالث: أنه يقولون لا يشرك إذا دعا غير الله ما لم يعتقد تأثير المدعو أو يعتقد ربوبيته.

(ويقال له أيضًا: قولك الشرك عبادة الأصنام فهل مرادك أن الشرك مخصوصٌ بهذا وأنه الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في ذلك فهذا يرد ما ذكره الله في كتابه من كفر على الملائكة أو عيسى أو الصالحين فلابد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهذا هو الشرك المذكور في القرآن، وهذا هو المطلوب فسر المسألة أنه إذا قال أنا لا أشرك بالله فقل له وما الشرك بالله؟ فسره لي فإن قال: هو عبادة الأصنام فقل وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي؟ ألا أعبد إلا الله وحده فقل: ما معنى عبادة الله وحده؟ فسرها لي، فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب وإن لم يعرفوا فكيف يدعي شيئًا وهو لا يعرفه، وإن فسر ذلك بغير معناه: بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان وأنه الذي يفعلونه بهذا الزمان بعينه وأن عبادة الله وحده لا شريك له

هي التي ينكرون علينا ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم حيث قالوا: أجعل الإلهة إلها واحدًا إن هذا لشيءٌ عجاب، فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا كبير الاعتقاد هو الشرك الذي نزل في القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه فاعلم أن الشرك الأولي أخف من شرك أهل زماننا بأمرين، أحدهما..) أراد المؤلف من هذا أن يبين قبح وشناعة الشرك في زمانه من وجهين، الوجه الأول: أن المشركين في هذا الزمان يشركون في الرخاء وفي الشدة أما أهل الشرك الأول فلا يشركون إلا في حال الرخاء كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، أما أهل الشرك في هذا الزمان فإنهم يشركون في حال الرخاء وفي حال الشدة بل هم في حال الشدة أكثر شركًا وأعظم إشراكًا ويشتد الأمر بهم عند التجائهم بأوليائهم الصالحين واعتقادهم بأنهم ينجون عند الشدائد ويكشفون الكروب ويرفعون الملمات.

أما الأمر الثاني الذي يبين قبح وشناعة الشرك عند المتأخرين أنهم لا يعبدون كما كان هؤلاء يعبدون الصالحين من الملائكة والأنبياء والأولياء وإنما وقعوا في عبادة أهل الفساد والانحراف بل تجاوز الأمر إلى أن بعض هؤلاء الذين يعبدونهم لا يدينون بالإسلام أصلًا بل بعضهم ممن كاد للإسلام وأهله ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن هؤلاء في كتابه تلبيس إبليس أنهم يجتمعون في موائدهم على الخمر وتعاطي الحشيش والاجتماع بالنساء ونحو ذلك من المنكرات ووصفهم بالزنادقة، وعبد الوهاب الشعراني في كتابه طبقات الصوفية الكبرى ذكر أولياؤهم فذكر المجاذيب يعني المجانين وذكر الزناة وذكر أن من أوليائه من يأتي الأتان يعني أنثى الحمار عيانًا، وذكر من يخطب عُريانًا وذكر من يعرض للنساء وذكر جملة من انحرافاتهم وفجورهم وفسقهم بل ذكر من لا يغتسل طيلة عمره، وذكر من لا يصلي وكل هذا في تعداد كراماتهم ومقاماتهم ومراتبهم ولهذا الشيخ رحمه الله بين أن هؤلاء المتأخرين عبدوا والتجأوا إلى من عرف فسقه وانحرافه، وهو بهذا أغلظ من شرك الأولين بل وصل الحال بهؤلاء إلى أنهم يعبدون من لا يدين بالإسلام أصلًا بل من كاد للإسلام وأهله.

ويذكر في هذا أن جملة من الأولياء الذين ظهروا في القرن السابع وما بعده ظهروا بمكيدةٍ باطنية أرادوا بها إعادة الدولة الباطنية التي ظهرت في الأمة الإسلامية وحكمت ما يقرب من قرنين، حكمت مصر والمغرب العربي ثم زالت فأراد الباطنيون أن يعيدوا دولتهم من خلال من بعثوه وادعى الولاية في أقطاب العالم الإسلامي، فكان أحمد الرفاعي في العراق وكان البدوي في طنطا وكان الدسوقي في دسوق بمصر وكان الشاذلي في الإسكندرية هؤلاء جميعًا من الباطنيين والباطنيون ليسوا من أهل الإسلام أصلًا، بل إنهم من أشد الفرق بغضًا وعداءً للإسلام وأهله وكان ظهور هؤلاء إنما هو تآمرٌ على الإسلام والمسلمين لإعادة الدولة الباطنية التي زالت، وإلا فهؤلاء جميعًا لم يُعرفوا بالعبادة ولا

بالصلاح بل لم يُعرفوا بالإسلام أصلًا، بل إن أحمد البدوي هذا المعظم عندهم يُذكر أنه لم يصلي قط ولما دخل المسجد يوم الجمعة قام وبال في المسجد وخرج ويُذكر عن هذا البدوي كثير مما يُستهجن ويُستنكر وتستقبحه النفوس السليمة وتستوحش منه الفطر المستقيمة ومع ذلك استطاع هو وأتباعه إلى زماننا هذا أن يخدعوا المسلمين ويزينوا لهم عبادتهم من دون الله ولا زالوا يزعمون أنه يكلمهم من قبره وأنه يخرج عليهم وأنه يرزقهم وينصرهم ويغيثهم، فهل بعد هذا الجهل من جهل وهذا الضلال من ضلال أن يُؤتى إلى باطنيٍّ عرف بعدائه وكيده للإسلام والمسلمين، وعرف أنه لم يلتزم بفرائض الدين ولا شعائره ثم يُعبد من دون الله ويقام له المولد كل سنة ويجتمع عنده المليين من البشر ويرتكبون عنده الموبقات والفظائع.

(فاعلم أن الشرك الأولي أخف من شرك أهل زماننا بأمرين، أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون لله الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾[الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[الزمر:٨]﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ ﴾[لقمان:٣٢]، فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا راسخًا والله المستعان، والأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناسًا مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعةً لله ليست عاصية وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد في من يشاهد فسقه وفساده ويشهد به، إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ) إذن فأراد الشيخ من هذا أن يبن قبح وشناعة المشركين في الزمان المتأخر، وبيان ذلك للناس وكشفه وإيضاحه مهمٌ في التنفير منهم ولهذا لابد لطالب العلم أن يلملم مسائل الكتاب فإن الشيخ، لأن هذه الرسالة مختصرة إنما يشير إشارات لكن تحت هذه الإشارات كلامٌ طويل يستحق لطالب الإيمان والتوحيد أن يتوقف عندها حتى إذا أراد عرض مسألة التوحيد والتحرير من الشرك يكون لكلامه أثر وتأثير ولهذا لابد للراغب في الحق ونشره أن يجمع كل

ما يتعلق بمسائل هذا الكتاب التي أشار إليها المؤلف ويستحضرها استحضارًا جيدًا في ذهنه حتى يكون على حصانة ومأمنٍ من التأثر بشبهات المشركين، وحتى يكون قادرًا على الدعوة إلى التوحيد والتحرير من الشرك والتنفير منه وبيان قبحه وقبح ما عليه أهله.

(إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولًا وأخف شركًا من هؤلاء فاعلم أن لهؤلاء شبهةً يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم فاصغي سمعك لجوابها) وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.